

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد.

جلس الأمير على عرشه الذهبي، المحاط بالمسارج المشتعلة، والمباخر المتقدة، فجلس القواد، والكهان عن يمينه، وشماله، ووقف الجنود، والعبيد أمامه، وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس.

بعد هنيهة، وقد انتهى المرتلون من إنشادهم، وتوارت أنفاسهم من طيات أثواب الليل، وقف كبير الوزراء أمام الأمير، وقال بصوت تهدجه ضالة الشيوخة: أيها الأمير العظيم، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها، فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد، وانتقال النفوس من جيل إلى جيل حتى تبلغ الكمال، وتصير إلى مَصَفِّ الآلهة، وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك؛ ليبسط تعاليمه أمامك.

فهز الأمير رأسه، وقال مبتسماً: «من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب، فأدخلوه لنسمع حجته».

لم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسمر اللون، مهيب المنظر، ذو عينين كبيرتين، وملامح منفرجة، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة، وأميال غريبة، وبعد أن انحنى مستأذناً رفع رأسه، وتلمعت عيناه، وطفق يتكلم عن بدعته مظهرًا كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذي تختاره، متدرجة بتأثيرات الأمور التي تختبرها، متمايلة مع الأمجاد التي ترفعها وتقويها، نامية مع الحب الذي يسعدها، ويشقيها ... ثم

وقال أحد القواد: «لم يزل يحقد في أعماق الفضاء كعادته، كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف».

وقال رئيس الكهان مخاطبًا الأمير «غداً نقره في ظلال هيكل عشتروت المقدسة، فيسير سكان المدينة وراء نعشه، وينشد الفتيان قصائده، وتنتثر العذارى الأزهار على ضريحه، لقد كان شاعرًا عظيمًا فليكن احتفالنا بدفنه عظيمًا».

فهزَّ الأمير رأسه دون أن يحول عينيه عن وجه الشاعر المُتَّشِحِ بنقاب الموت، ثم قال ببطء: «لا، لا، لقد أهملناه إذ كان حيًّا يملأ جوانب البلاد من أشباح نفسه، ويعطر الفضاء بأنفاسه، فإذا ما أكرمناه ميتًّا تسخر بنا الأهله، وتضحك منا عرائس المروج والأودية، ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه، وأبقوا قيثارته بين ذراعيه، وإن كان بينكم من يريد أن يكرمه، فليذهب إلى بيته ويخبر أبنائه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيِّبًا، وحيِّدًا، منفردًا».

ثم التفت حوله، وزاد قائلاً: «أين الفيلسوف الهندي؟».

فتقدم الفيلسوف، وقال: «ها أنذا أيها الأمير العظيم».

فقال الأمير «قل — أيها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميرًا إلى هذا العالم، وتعيده شاعرًا، هل تُلبِّسُ روحي جسد ابن ملك عظيم، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير، هل توقفه النواميس ثانيةً أمام وجه الأبدية؛ لينظم الحياة شعرًا، وتعيديني لأُنعم عليه، وأُفرح قلبه بالهبات والعطايا؟».

فأجاب الفيلسوف قائلاً: «كل ما تشاقه الأرواح تبلغه الأرواح، فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميرًا عظيمًا، ويعيده شاعرًا كبيرًا». فانفرجت ملامح الأمير، وانتعشت نفسه، ثم مشى نحو قصره مفكرًا في أقوال الحكيم الهندي محادثًا ذاته بقوله: «كل ما تشاقه الأرواح تبلغه الأرواح».

٢

«في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد».

طلع القمر، وألقى وشاحه الفضي على المدينة، وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافي، مفكرًا بمآتي الأجيال التي مرت متتابعةً على ضفاف النيل، مستوضحًا أعمال الملوك والفاثحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول، مستعرضًا مواكب الشعوب والأمم التي سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين.

ولما اتسعت دائرة أفكاره، وانبسبت مسارح أحلامه، التفت نحو نديمه الجالس بقربه، وقال: «في نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فأنشدنا شيئاً منه». فحنى النديم رأسه، وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي، فقاطعه الأمير قائلاً: «أنشدنا شعراً أحدث عهداً».

فانحنى النديم ثانية، وابتدأ يردد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين. فقاطعه الأمير أيضاً وقال: «أحدث عهداً — أحدث عهداً». فانحنى النديم للمرة الثالثة، وأخذ يترنم بمقاطع موشح أندلسي. فقال الأمير «أنشدنا قصيدةً لشاعر معاصر».

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنه يريد أن يستحضر إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر، ثم برقت عيناه، وتهلل وجهه، وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية، ومعانٍ رقيقة مبتكرة، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملؤها شعاعاً، وتحيط بالقلب فتزييه انعطافاً.

فحدَّق الأمير بنديمه وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها، وشعر بوجود أيدٍ خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصي، ثم سأل قائلاً: «لمن هذه الأبيات؟». فأجاب النديم «لشاعر البعلبكي».

الشاعر البعلبكي!

الشاعر البعلبكي ... كلمتان غريبتان تَمَوَّجَتَا في مسامع الأمير، وولدتا في داخل روحه النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها، قوية بدقتها.

الشاعر البعلبكي: اسم قديم جديد، أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية، وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثاره، وقد وقف حوله القواد، والكهان والوزراء.

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره، مردداً آية النبي العربي ﴿وَكُنْتُمْ أََمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيْتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

ثم التفت نحو نديمه قائلاً: «يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا، وسوف نقربه ونكرمه» وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض «إنما الشاعر طائر غريب المزايا، يفلت من مسارحه العلوية يجيء هذا العالم مغرداً، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه، ويعد طائراً إلى مواطنه».

الشاعر البعلبكي

وانقضى الليل ... فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم، ولبس قميصه المنسوجة
من أشعة الصباح، ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه، وخفايا الحياة
وأسرارها.